Coptology

رسالة عيد الغطاس ٢٠٢١

عيد شركتنا في الروح القدس

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢١

www.coptology.org

عيد الغطاس هو عيد ظهور الثالوث القدوس، وظهور الثالوث يؤكد لنا أن تدبير الخلاص هو عمل الآب والابن والروح القدس. ولذلك، عندما اعتمد الرب في الأردن ونزل عليه الروح القدس في شكل حمامة، قال القديس أثناسيوس: "كنَّا نحن الذين اعتمدنا فيه، ولما مُسِحَ الربُّ في الأردن كنّا نحن الذين مُسِحنا فيه". فالربُّ جاء ومعه مسحة الروح القدس التي تعطي لنا أن نفهم سر التدبير فهماً إلهياً، وليس مجرد الفرح بتقديس المياه، وأكل القلقاس وما يتبعه من ممارسات شعبية. ولكي ندخل إلى أعماق سر التدبير، علينا أن نعود إلى معمودية الرب التي أعطت لنا أن نشترك في معموديته، وأن نُمسَح كما مُسِح هو لنصير واحداً معه، مع الابن، وننال الروح القدس الذي سبق الربُّ ومُسِح به لكي يضع دائماً الأساس (أساس الخلاص) "فيه". وحرف الجر "فيه" هو تأكيدٌ لنوالنا شركة في الابن وعمل الروح القدس، فالروح لن يكمِّل تناولنا من أسرار الرب حتى يأتي هو بنفسه ويضع الأساس الأبدي الثابت الذي لا يمكن تغييره، لأن الرب هو هذا الأساس. فكما اتحد الربُّ بطبيعتنا، هكذا وحَّد معه طبيعتنا بالروح القدس. ولذلك يقول الرسول يوحنا الإنجيلي: "وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء".

العيد هو اشتراكنا –حسب التدبير– في الروح القدس بعد أن يرفع الابن له المجد موانع الموت والفساد والجهل كعطايا الله الآب. فالعيد يؤكد أن اتحادنا بالابن ليس اتحادًا مجازيًّا ومعنويًّا، إنما هو اتحادٌ حقيقيٌّ لأن الابن صار جسداً وسكن فينا. فالمسيح إلهنا الصالح يقول في الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح الثاني: "أُخبرُ باسمك اخوتي وفي وسط الكنيسة أُسبِّحُك"، كما كتب الرسول بولس. فالربُّ معنا في الكنيسة يسبِّح معنا لأننا

نلنا نعمةً سماويةً. ويقول الربُّ أيضـــاً إنه "لا يســـتحي أن يدعونا اخوته"، فنحن اخوة الربِّ، ليس بالمعنى الدارج الذي أُعطي للفقراء في كنيســتنا، بل لأننا اخوته حقاً حســب الجســد، ولذلك حتى لا يتوه المعنى منّا يقول الربُّ لمريم المجدلية بعد القيامة: "اذهبي وقولي لأخوتي"، فهو يدعونا اخوته بسبب تجسُّدِه وبسبب محبته لنا نحن الغرباء الذين جاء الرب ليفديهم.

أســاس التدبير هو اتحاد اللاهوت بالناســوت، وهو اتحادٌ لم يسعَ الإنســان إليه، إنما أُعطيَ بواســطة الابن كمحبة إلهية فيها العلاقة الحميمة التي يعبِّر عنها لقب "اخوته"، والتي أكَّدها الربُّ بإعطاء الجســـد والدم في العلية يوم الخميس الكبير. فعلينا أن ننتبه إلى العيد كعيد اتحادنا بالابن المتجسد، هذا الاتحاد الذي لم يسعَ الإنسان إليه، وإنما كان هو سعي الله المتواصل الذي ابتدأ جزئيّاً في العهد القديم وأُكمل في العهد الجديد.

في قداس اللقان تقرأ الكنيســـة القبطية نبوة حزقيال النبي عن النهر العظيم الذي غطســـت فيه كلُّ نفسٍ تحتاج إلى الروح لكي تحيا. وهذه النبوة بالذات تشـــرح لنا طقس رش الماء بعد القداس من على يمين المذبح، حيث يأخذ الكاهن إناءً من الماء ويرش الكنيســـة كلها، مؤكِّداً لنا أن النهر العظيم هو الروح القدس الذي وَعَدَ الربُّ به في إصـــحاحات البارقليط التي نقرأها ليلة الخميس الكبير. والروح لا يُعطى إلَّا بعد أن كلَّم الربُّ تلاميذه عن التقديس القادم، بقوله: "قدِّســـهم في حقك. كلامُك هو حقٌّ". كلامُ الآبِ هنا هو اســـتعلان وعطية ما ســـوف يُعطى، وبالرغم من أنه لا توجد في الحقيقة مســـافات زمانية بين عناصـــر التدبير، إلَّا أن مَن لم يتدرب روحيّاً يظن أن المعمودية والصليب والقيامة أحداثٌ منفصلة، ولكن مَن تدرَّب روحيّاً في مدرسة محبة البشر –تلك المدرســـة التي أسَّســـها الرب يســـوع بنفســـه، والتي هو حريصٌ عليها، لأنها عطية ذاته للإنســـانية، لأنه لا يعطي خيراتٍ خارج محبته، بل من كيانه– يُدرك أنه لا فواصـــل ولا مسافات بين هذه الأحداث.

نخطئ خطأً عظيماً إذا تصـــوَّرنا أن عطايا الابن لنا هي عطايا مؤقتة، أي زمانية،

إنما هي عطايا مصالحة الله الآب معنا، وهي لذلك ليست لفظية، بل حقيقية.

كان الكلام عن التدبير ينقصه انسكاب الروح يوم الخمسين، ولكن الآن انسكب الروح حسب وعد المخلص لنا، وهو ما حدث في معموديته في الأردن، وقد أخذ الربُّ الروح قبلنا لكي يؤكِّد لنا أنه عطيته، وأنه أيضاً عطية الآب.

في التدبير صار اللفظ والكلمة استعلاناً لعمل الله، وليس مثل نبوات الأنبياء في العهد القديم .. فالعهد القديم كان استعلاناً لفظياً أمَّا في العهد الجديد، فهو استعلانٌ حقيقيٌّ لأن الذي أعطى هذا الاستعلان هو المتجسِّد لأجلنا. ولأن التجسُّد هو عملٌ حقيقيٌّ لا يقتصر على مجرد دعوة الإنسان ليكون أخاً للابن المتجسد، بل هو أيضاً وَضَعَ الأساس الثابت لتبني الإنسان. ولذلك كانت مشكلة حركة الإصلاح في أوروبا، أنها أفرغت التدبير من إشراق وإعطاء الروح القدس إلى مجرد كلمات تُقال بلا مضمون.

التجسُّد جاء من الله الآب الذي أرسل ابنه الوحيد إلى العالم ليخلص العالم، والخلاص هنا ليس مجردَ درسٍ نبويٍّ، بل استعلانٌ للشركة في الابن بالروح القدس، حسبما استلمنا من القديس اثناسيوس الرسولي في رسائله إلى الأسقف سرابيون، لأن الإنسان بطبيعته قابلٌ للموت، بل هو تحت حكم الموت، ولا يمكن أن يخلِّصه إلَّا عملٌ إلهيٌّ حقيقيٌّ يضم طبيعته إلى الطبيعة الإلهية التي لا تعرف الموت والفساد. وقد غابت هذه النقطة بالذات من كتابات وفكر قادة حركة الإصلاح، مما يجعل اجتماع غير الأرثوذكس بالثالوث القدوس، ليس إلَّا مجرد تعليم لفظي يخلو من الشركة، وجعل لاهوت حركة الإصلاح يدور في حلقاتٍ لفظيةٍ ومشاحناتٍ كلامية تخلو من التعليم عن الأساس الحقيقي في سر التدبير.

يا ليتنا نقول مع النبي ميخا: "يا رب مَن مثلك إلهٌ غافرُ الذنوب لبقية ميراثك، وحافظ عهدك، وتطرح خطايانا بعيداً"، الأمر الذي جعل آباء الإسقيط يقولون دائماً: "يطرح خطايانا في بحر النسيان"، لأن الله لا يبدأ استعلان التدبير بخطية الإنسان، بل بصلاحه، وهو ما نراه عبر صفحات كتاب تجسد الكلمة لمعلمنا القديس أثناسيوس.

لنفرح بالعيد، لأنه عيد مسحتنا، واعتبارنا مسيحيين، لأن هذا الاسم بالذات، أُعطي لنا من الله، كما ذكر القديس كيرلس الأورشليمي.

وكل عام وأنتم جميعاً بخير.

بارك الله في أرض مصر، وفي مياه النيل، وفي كل مَن يشترك في استعلان الثالوث في هذا العيد؛ قداسة البابا تواضروس الثاني، وكل الأساقفة والقسوس وكل الشعب، ورَفَعَ عنّا غمامة كورونا، وحَفِظ لنا حياة الرئيس عبد الفتاح السيسي.

+ + +